

أبدع الفنّان في الغرب بخلق وسائل جديدة منذ ستينيات القرن العشرين حتّى اليوم، بهدف التفاعل مع المُتلقي والمُجتمع، معتمداً على تقنيات جديدة في تنفيذ العمل الفني وباحثاً عن أماكن جديدة للعرض بعيداً عن الصالات والمتاحف. هكذا ولد فنّ التجهيز، من خلال أعمال فنيّة تميّز بروح البحث والتجريب، وتثير الدهشة لدى المُتلقيين. فنّ يضع العُنصرَ اليومي خارج سياقه المُعتاد، ويسلّط الضوء على ما تمثّل به الحياة من أشياء صغيرة لا تُعطيها أهميّة لكنّها مع ذلك تُشكّل جزءاً كبيراً من اهتمامنا. قبل دخول غمار فنّ التجهيز كان لا بدّ من العودة إلى الماضي، منذ التغيرات التي شهدتها الحضارة الغربية، ثم أزمة العلاقة بين الفنّ والمُجتمع في أوروبا، حين بدأ مفهوم جديد للأشياء يتشكّل في ذاكرة الفنّ التشكيلي، وخرجت الأشياء من هدوء الطبيعة الصامتة في اللوحة التقليدية، فأصبحنا نلمس الجمال المنفرد للأشياء، أو الجوّ الخاص بها، من خلال العديد من الاتجاهات الفنيّة، ومن خلال أجيال شابّة من الفنانين، وهذا أدّى إلى التشكيك بوظيفة الفنّ ودوره. أتت الثمانينيات مع الثورة التكنولوجيّة والتقنيّات الحديثة، فبات المجال مفتوحاً أمام الفنّان أكثر من أيّ وقت مضى للتغيير في إنتاج ومفهوم العمل الفني لتكوين مفاهيم تشكيليّة جديدة مع الاستعانة بوسائط تُصنّع خصيصاً للعمل، تحقيقاً لهدف أو موقف يريد الفنّان أن يُعبّر عنه، وهذا ساعده وجعله يدمج بين كلّ أنواع الفنون للحصول على عمل فنيّ مُتكامل. فاستخدم تقنيّات أوسع مثل الفيديو، ونقذ الفنّانون أعمالاً دمجوا من خلالها الوسائط البصريّة والسمعيّة وازداد استخدام تكنولوجيا المعلومات لتُصبح هي الوسيط الأساسيّ بعد التسعينيات مثل الفنّ الرقمي. فعمد الفنّان إلى استخدام المُخيّلة الفنيّة لديه، باستخدامه وسائط متعدّدة ومُتغيّرة، فدمج من خلال فنّ التجهيز الفنّ بالطبيعة والبيئة، وأزال الحواجز بين فروعه، ليُصبح العمل الفنيّ مجال تأمل وموضوع تساؤل، تكفي بإشارتها إلى المُتلقي وإلى البيئة التي يظهر من خلالها العمل كحدّث تشكيليّ قائم على مفهوم المتعة واكتشاف كلّ إمكانات الصُدفة لخلق أشكال مُبتكرة، والوصول به إلى أبعد الحدود من خلال تطوير وسائله. سعى فنّان التجهيز لتطوير علاقته بالمُتلقي، من خلال دمج المُتلقي بالعمل الفنيّ والمكان، الأمر الذي لم يتمّ ضبطه بشكل دقيق بعد في عالمنا العربي، بسبب قلة الدراسات من جهة، واقتصارها على النقاش حول العلاقة ما بين الحداثيّة وما بعد الحداثيّة من جهة ثانية. إنّ الإحساس الدائم بوجود تباعد بين الفنّان والمُتلقي في لبنان، وعدم انخراط الأخير بشكلٍ واعٍ مع الثقافة الفنيّة، يقودان إلى الغوص في التجربة اللبنانية، خاصة من خلال انحسار الوعي في بيئة متوارثة لكلّ ما هو تقليدي، وهذا يُنتج تفسيراً محدوداً للعمل الفنيّ، ويبقى بعيداً عن الولوج في آفاق متعدّدة من الاحتمالات وتوسّع الرؤية كما حصل في الغرب، حيث نضجت البيئة الحاضنة له بشكلٍ مُتدرّج واضح المعالم، تماشياً مع الأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، وهو ما لم تشهده الساحة العربيّة واللبنانية في مرحلة الانتقال من الحداثيّة إلى ما بعدها. فخرج الفنّان اللبّاني عن إطار اللوحة ليُعبّر بشكلٍ مُعاصر وبأسلوبٍ جديد عن فنّه وإبداعه، بل عن معاناته بسبب ظروف الحرب الأهلية اللبّانية وانشطار البلاد إلى أجزاء، كان سبباً أساسياً في هذا الضياع الثقافيّ والفنيّ عند الجمهور. فالفنان اللبّاني الطلّع على ما يعيشه العالم من ثورة في شتّى نواحي الحياة، فكان كغيره من الفنّانين يتأثّر ويؤثّر في اتجاهات الفنون البصريّة في بيئته، سواء على صعيد التقنيات أو وسائل الاتصال أو المعلومات وغيرها. فتطوّر أسلوبه الفنيّ والتعبيريّ من خلال مواكبته لروح العصر والمُعاصرة التي يعيشها الفنّ العالمي. تلامس حياة الإنسان اليوميّة وتُحاكي تطوّراته. أي بين المُبدع والمُتلقي، ومنها فنّ التجهيز، وبين جمهور المُتلقيين. تبنّى هذا الكتاب مرحلة ما بعد الحداثيّة والظروف التي قادت إليها، والتي انبثق منها فنّ التجهيز وأسس هذا الفنّ ومرتكزاته، ليُطرح من خلالهما إشكاليّة التلقي للعمل الفنيّ المُعاصر أو (لما بعد حداثي) بشكل عام، وفنّ التجهيز والمُتلقي اللبّاني بشكل خاص، مقارنةً بعمليات التلقي في الأدب والفنّ والاهتمام بها في الغرب. فكان السعي لرصد تلك الإشكاليّة وماهيّة حلولها على صعيد التربية والثقافة الفنيّة من جهة، والنقد الفنيّ والإعلام من جهة أخرى. خاصة أنّ مثل هذه المواضيع تعتبر حيّة ومتجدّدة بحكم التطوّرات الهائلة على الصعيدين الفنيّ والتقنيّ. فكان من الأهميّة بمكان تسليط الضوء على هذه الاتجاهات الفنيّة المُعاصرة لفنون ما بعد الحداثيّة، ومنها فنّ التجهيز الذي يحتاج منا إلى وقفة تأمل ودراسة لأسلوبه واتجاهه الفنيّ الذي يُلامس قضايا ومشاعر إنسانيّة ويواكب التطوّر والعصر الحديث. خاصة أنّنا نشهد مواكبة لهذا التطوّر في الأسلوب الفنيّ والتعبيريّ لدى الكثير من الفنّانين اللبّانيين، وإبلاء فنّ التجهيز فُسحة في المشهد اللبّاني، بحيث حققت تلك الأعمال مراكز متقدّمة في المسابقات المحليّة والدوليّة. تبقى نظرية التلقي والتفاعل في الفنّ أفقاً مفتوحاً أمام الباحثين،